الهوية اللغوية والتعدد اللغوي

الأستاذ:بن معمر بوخضرة

تطرح الهوية اللغوية في ظل العولمة تساؤلات عدة على مستوى البناء الحضاري والثقافي." فالعولمة ليست ظاهرة محايدة بين الحضارات والثقافات بل هي إفراز ثقافة متحيّزة بعينها"[1]، غايتها في ذلك تمييع وتفويض هويات الشعوب في أهم ركائز انتماءاتها الهويتية وهي اللغة، لذلك هناك من وصف العولمة. "وعلى أنها مآمرة لغوية"[2]، فتغريب العالم ومحو الهويات،غالبا ما تكون اللغة هي مفاتحه لأنها تجري بشكل بطيء، وبطريقة اختيارية تارة باسم العلم والتحضر والانفتاح، وتارة أخرى تكون قهرية، تفرضها القوانين الدولية ، التي يسنها الغرب في تعامله مع الهويات الأخرى.

فتولد عن هذا كله مجموعة من المصطلحات من قبيل ثقافة الانفتاح، ثقافة التكيف، ثقافة الإصلاح القومي، وثقافة التعدد والاختلاف. وما يهمنا في هذا الموضوع هو مسألة التعدد

اللغوي الذي أصبح يشكل تهديدا للهويات الوطنية والقومية،في ظل عولمة جائزة، واختراق ثقافي مغلق بشتّى أشكال الحيل والممارسات في تطبيقه.

فالمسالة تقتضي علينا أن نطرح سؤالا هو كيف يمكننا التوفيق بين الحفاظ على الهوية اللغوية في ظل وجود تعدد لغوي؟.

في البداية يجب أن نفرق بين ثلاثة مصطلحات لسانية متقاربة في هذا المجال وهي:

1. الازدواجية اللغويةBilinguisme: وهي ظاهرة سوسيولوجية كتلك التي نجدها في: سويسرا، كندا.

2. التعدد اللغوي Plurilinguisme: هي ظاهرة أكثر تعقيدا من الأولى تدل على تعدد اثني، كتلك التي نجدها في بعض المجتمعات الإفريقية، فهناك عدّة أعراق يتكلّمون لغتهم إلى جانب الأعراق الأخرى.

3. الثنائية اللغوية Diglossie: وهي من عيوب اللغة حينما تجتمع لغتين في عملية التواصل كأن نستعمل اللغة العربية واللغة الفرنسية.

إن هذه المصطلحات ضرورية لفهم الهوية اللغوية التي قد تخترق تحت هذا الإسم أو ذاك. كما إن تحديد مفهوم الهوية مهم في هذه المسالة حتى نستطيع أن نفهم تداعياتها على مستوى اللغة.

الهوية:

الهوية، باعتبارها مفهوم مركزي في هذا الموضوع، فإن معالجتها تبقى شديدة التعقيد فقد عرفها البعض على" أنها السمات المشتركة التي تتميز بها جماعة معينة بنفسها وتعتزّ بها فالهوية إذن تتألف من منظومة متماسكة من السمات المشتركة بين أعضاء الجماعة"(3). فقد أظهرت سجلات حديثة اختلاف تصور الهوية بين الإثنولوجيين والمحللين النفسانيين، بين تصور إثنولوجي يعتبر الهوية بمثابة صورة الذات التي يفرضها المجتمع على الفرد.

والنظرية التحليل نفسية التي ترى أن الهوية تنعقد في علاقة الطفل بالأم، هذا من جهة ومن جهة أخرى تميل الأبحاث حاليا إلى التشديد على التمييز بين الأنا والذات وتوضيح الطبيعة المتخيلة للأنا.

فقضية التعريب مثلا تحيلنا إلى البحث عن هوية مفقودة أو معرّضة إلى الفقدان. وبالتالي سيتم ترميمها، كما أنّ اللغة الفرنسية تحيلنا على الاستعمار والاستقلال، كما تحيل أيضا على التنمية والحداثة والاستهلاك، وسائر هذه الموضوعات هي التي تشكل أساس الخطاب الوطني الّذي هو نفسه خطاب الهوية.

فوراء اللغة الفرنسية وعلاقتها بالعلم والتقنية، يوجد عالم واقعي أو متخيل، يتم التعلق به تعلّقا شديدا.وعلى عكس الفرنسية تحيل اللغة العربية أساسا على الإسلام وماض تاريخي، وهوية تقع في الماضي، كما تحيل إلى نقاء ا أصل، على الدّين وعالم الماورا، باعتباره موضوع اعتقاده ما لم يكن موضوع ممارسة. ويبدو أن السؤال الأساسي في إشكالية هذا التمزق هو كيف يمكن الة. ويبدو أن السؤال الأساسي في إشكالية هذا

التمزق هو كيف يمكن الحفاظ على أحدهما دون فقدان الآخر؟.

اللغة والهوية:

إن أهم الأمور التي تلح على الإنسان العربي، في هذه الأيام وأولها تعزيز حضوره الفعّال، وتثبيت هويّته الخاصّة به في ساحات المعترك الحقيقي الذي يعيشه العالم، وبالتحديد معترك الصراع الّذي يحتدم على مستوى الكرة الأرضية كلّها بين الثقافات المختلفة، بين وجود ثقافة وانتشار ثقافة أو ثقافات أخرى.

والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا في هذا المجال هو ما دور اللغة في تثبيت هذا الوجود؟. وأين يقع مكانها في تكوين حياة الإنسان وبناء ثقافته ونظرته لنفسه وللعالم من حوله؟.

إذن تحديد اللغة يقع في صلب تحديد الهوية، وكلاهما يقع في أساس فهم التحولات التي نشهدها في الزمن الحاضر. فالهوية كما يحددها عالم الاجتماع أريكسون "ترتكز على

الشعور الواعي بالذاتية الفردية، وعلى الجهد اللاواعي في تضامن الفرد مع الجماعة وتطلعاتها"[4].

إذن تقوم هوية المرء على قاعدتين تكمّل كلّ منهما الاخرى، وتساعد في بنائها وهما: الذات والجماعة، ولابد من التركيز هنا على انّ الهوية الفردية ليست خاصية أو صفة يتّصف بها الشخص، بل هي بناء يقوم به الإنسان في مراحل متعدّدة من حياته، وبواسطة أعمال ومواقف ينظر من خلالها إلى نفسه، ويجابه بها الآخرين، وهذا لا يتم إلاّ في عمليات معقّدة من التواصل تحتلّ فيه اللغة موقع الصّدارة.

وإذا كان بناء الهوية الاجتماعية يأتي حصيلة مراحل متعدّدة من مجابهة الفرد للجماعة والتماهي معها والانفعالات منها، تم العودة إليها ،وبعبارة أخرى إذا كانت الهوية تقدّم على تفاعل متعدد المستويات بين الفرد ومجتمعه،فإنّ اللغة وهي الأداة الأولى والأهم في عمليات التواصل والاندماج داخل المجتمع هي كذلك الأداة الأساسية لتحديد الهوية والتعرّف على الذات عند الفرد كما عند الجماعة الواحدة.إننا نتعرّف على

ذواتنا انطلاقا من اللغة الأم الأولى التي تتعرّف عليها في بيئتها الطبيعية والتي نتواصل بها مع العالم الخارجي ونتعرف على المدركات الاجتماعية والثقافية والسياسية والتاريخية... والتي نمتلك بها هذه الهوية التي نسميها الهوية اللغوية.

الهوية اللغوية:

لاشك بانّ اللغة كانت عند جميع الشعوب هي الضامن الأساسي للهوية، فاللغة كهوية تستطيع الحيلولة دون الاندماج والتلاشي في الثقافة الأجنبية التي أدخلها الإستعمار الذي لازال حاضرا من خلال المبادلات الاقتصادية والثقافية المتعدّدة مع عالم خارجي غير عربي، والمنطق التاريخي يقول بأنّ اللغة وبالتالي تتغيّر معها الهوية فالهوية اللغوية بالنسبة إلى اللغة العربية تتجاوز مجرّد ظاهر يحملها التكلم بهذه اللغة وكتابتها وفهمها "إذن اللغة تتغيّر، ولكنها تبقى محتفظة بتميزها، فهي تتغيّر وفق ميزان دقيق من الثوابت والتحولات.وحين يختل هذا الميزان تكون اللغة في خطر، وكذلك الهوية تتغير ولكن وفق

التحول وباختلاّل هذا التوازن تتعرض الهوية للخطر أيضا"[5].

وقبل تحليل السياق الراهن، من الضروري دراسة وظيفة اللغة العربية في صلتها بالهوية كما يوردها التقليد، وكما قد يحس بها الرأي العام بشكل واع بهذا القدر أو ذاك.

يفرق الحديث النبوي العروبة باللغة العربية إذ يقول "كل من تكلم العربية فهو عربي" وهذا الحديث فيه تحفظ تجاه الخصوصيات الإثنية يترجم محاولة الإسلام استبدال الهوية يلعب دورا لا يستهان به في تحديد الهوية الوطنية ،والمواطنة هنا تشمل عموما على هوية أصيلة وهوية مكتسبة لمرسوم، فالرأي العام يعتبر المواطنين أولئك الذين ولدوا في بلدة أو مدينة تقع في جغرافيا العربية ،ويتكلمون لغة البلاد ،ويدينون بالإسلام ،وبهذا الشروط نادرا ما يعتبرون مواطنين حقيقيين ،وهذا يدرج فيها الإيديولوجيون مكونات أخرى في التاريخ المشترك ،والمرجع الجغرافي ..الخ.

واللغة تدخل في خضم هذا التكوين إذ يجب "أن نتمثل اللغات -هذا الشق من العالم- تمثلا واضحا مدققا لما يعرف بمسار الأمر تحديد المواقف، وتوضيح الرؤى.." [6]، ولهذا كانت اللغة دائما هي المؤطر الأساسي للهويات الوطنية والقومية عبر التاريخ "فلكل مسار لغوي تاريخا مؤطرا" [7].

فالقوى الاستعمارية والتغريبية والاستيلابية أدركت هذه الحقيقة وبذلك سرعان ما أخذت تلتف حول اللغة لتمرير مشروعها على مر التاريخ، فاللغة باعتبارها "أهم العناصر الثقافية في معركة الاستيلاب الاستعماري -إذا كانت المجابهة يومها- ثقافية قبل كل شيء فهناك دين يعارض دين ولغة تكافح لغة وحضارة تنافخ حضارة" [8].

عوامل الحفاظ على الهوية اللغوية :

أمام هذا الاهتمام المتزايد باللغة كهوية وانتماء، فإن الحفاظ عليها منوط إلى الفرد والجماعة المكونة لها كما سبق وأن ذكرنا، فإذا نظرنا إلى التمييز بين هذين النوعين من الهوية

الفردية والاجتماعية وإلى طرق بنائهما من خلال حياة الفرد الواحد في تطور المجتمع البشري الواحد لرأينا أن اللغة تقع في أساسهما معا .

وتنفرد اللغة العربية في هذا المجال عن غيرها من اللغات العالمية بأنها كانت ولا تزال تكون المحور الذي تلتصق به من ناحية هوية الفرد، ومن ناحية أخرى هوية الجماعة وبين هذه وتلك هوية الدين.

فمن الواضح أن هوية الدين ترتبط ارتباطا وثيقا باللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم (لغة الإعجاز البياني)، ولغة الحديث النبوي الشريف، وإذا كان الحديث الشريف يؤكد على "أن العربية ليست لأحدكم بأب وأم، وإنما هي لسان، فمن تكلم العربية فهو عربي"، فإن ذلك يدلنا على أن اللسان هو أساس تحديد ثقافة المرء[9]، وهو إذ يعبر عن ثقافة الأمة يكون المعيار الأول لهويتها.

فالذي يحدد هوية الفرد والمجتمع هو اللسان والثقافة والتاريخ، صحيح أن الشعب الأمريكي هو حديث النشأة، إلا

أن ما يعتز به هو اللسان الذي يتكلم به ونعني به الإنجليزية، وبالتالي فهو يعي تمام الوعي بأنه ليس إنجليزيا، لأن ثقافته الحديثة ارتبطت بهذه اللغة، ونفس الشيء يقال بالنسبة لشعوب أمريكا اللاتينية، فالمكسيك التي تتكلم الإسبانية، والبرازيل التي تتكلم البرتغالية يشعرون بأن لهم هوية تختلف عن الأسبان والبرتغال.

ولكي نعرف هذا الارتباط بين اللغة والثقافة والأمة، لابد من العودة إلى المفاهيم اللسانية الحديثة، فهي تدرس الكلام وتهتم بالخطاب الفعلي (في موقف وزمن محددين) بقدر ما تهتم بالبنية الأساسية للغة، فالدراسات اللغوية تقوم على مبدأ أن لا وجود للغة خارج الزمان والمكان، وأن اللغة تتغير مدلولاتها ومعانيها ودلالاتها الخاصة بجارتها من الألفاظ والعبارات، كما تتأثر مرجعيتها بزمن المتكلم ومكانه.

انطلاقا من هذه الثوابت اللسانية نقول إن عمل اللسان العربي -مثله في ذلك كمثل سائر الألسن في العالم- يتم من خلال ارتباط استعمالاته بعلاقات تقع ضمن عدة عناصر أهمها: اللسان، الممارسة الفكرية والتاريخ والزمن.

"إن كلا من اللغة والفكر يستمد غذاءه المشترك وديناميكيته الخلاقة من الممارسة الفكرية (الوجودية والحياتية) في الزمن أي في التاريخ، تاريخ الفرد وتاريخ المجتمع على حد سواء، ونقصد بالزمن هنا الوقت الآني الذي يستعمل فيه اللسان للتعبير والتواصل، ونقصد بالتاريخ ما يحمله هذا اللسان من دلالات ومرجعيات بقيت في ذاكرة الكلمة والعبارة"[10]، ولهذا "كانت مسألة الهوية اللغوية ووعي الذات واحدة من أهم سمات عصر الإمبريالية في طورها الراهن، طور العولمة، يعاد إنتاجها على مستوى الوعي واللاوعي، وفي المخيلة الاجتماعية"[11].

إن هذه الدعوى إلى تحصين الهوية اللغوية، لا يعني أننا ندعو إلى الانغلاق وعدم الانفتاح على اللغات الأخرى، وإنما هي دعوى إلى اتخاذ موقف من مشكلة التعدد اللغوي داخل القطر الواحد.

التعدد اللغوي:

يقتضي هذا الموضوع معالجة متأنية في البحث، فتنوع اللغات وتعددها هي من أجل ألوان التنوع في حياة البشر، "وما

اختلاف الألسنية إلا دليل على اختلاف الثقافات وتعددها، فالصلة بين اللغة والثقافة صلة وثيقة وإذا اختلفت الثقافات اختلفت الحضارات"[12].

ولا أحد يمكن أن يلغي هذا التنوع، ولا أحد يمكن أن يفرض حصارا على أية لغة في العالم، فاللغات لا تحتاج إلى جواز سفر، فقد أبان العلماء "أن هناك حوالي 3000 لغة منطوقة في العالم اليوم، ولا تدخل اللهجات في إطار هذا العدد، وهناك لغات كثيرة تتكلمها مجموعات صغيرة، مكونة من بضع مئات أو آلاف من البشر، كما توجد أكثر من مائة لغة يتكلم بكل منها مليون أو أكثر من الناس ومن بين هذه اللغات توجد 19 لغة يتكلم بها ما يزيد عن 50 مليون نسمة"[13].

لكن أصل اللغات واحد، ذلك أن بداية الإنسان كانت مجتمعا صغيرا واحدا يتمثل في أبي البشر آدم عليه السلام، تفرعت هذه اللغات بسبب تكاثر أبناء البشر، والتباعد فيما بينهم لذلك "يصنف الباحثون اللغات إلى عائلات، والعائلات اللغوية، هي مجموعة من اللغات المرتبطة، لأنها جميعها نشأت

بصورة بطيئة من لغة واحدة"، ومع ذلك فإن اللغات في كل عائلة، لا تزال مرتبطة مع بعضها البعض لكونها نشأت من نفس لغة الأصل.

وعلى مستوى آخر، نجد بأن اللغة هي أداة للتفاهم والتخاطب واختلافها من أمة إلى أخرى لا علاقة له بجنس تلك الأمة، ولا بمستوى رقيها أو انحطاطها، لذلك ترى أهل لغة معينة، في فترة من الزمن، في أوج التقدم والازدهار، ثم تتوقف مسيرة تقدمهم ويتراجع مستواهم، فيصبحون في قاع التخلف والانحطاط، مع احتفاظهم بلغتهم، وقد يحدث العكس.

كما قد يتفاوت مستوى المجتمعات الناطقة بلغة واحدة مما يدحض بعض النظريات العنصرية التي ترفع من شأن بعض الشعوب، وتغض من شأن شعوب أخرى بناءا على اختلاف لغاتهم، لقد أثبتت الدراسات في عصرنا الحالي بالدليل القاطع أنه ليس هناك أي علاقة بين اللغة وبين انحطاط شعب أو تقدمه، وأن أي شعب قادر على اكتساب أية لغة من لغات الأرض، كما وأنه ليس للغة فضل على لغة أخرى، إلا بما اكتسبته خلال العصر الحاضر من تفوق المفردات الدالة على

العلوم والتقنيات الحديثة التي تتميز بها الحضارة الغربية، وهو فضل مؤقت ينمحي إذا استطاعت اللغات الأخرى اللحاق بركب الحضارة بالسرعة المطلوبة، ولا يعكس اختلاف الألسن وتعدد اللغات حالة تفاعل أو تفوق بين الشعوب، فليست هناك لغة تمنع التقدم للناطقين بها، أو لغة تفرض التخلف على أبنائها، وإنما اللغة أداة ووعاء.

ومن خلال كل ما سبق نخلص إلى أن اللغة تحدد الهوية، فهي ترتبط بالذاكرة، وبالممارسة الحالية، وانطلاقا من كل هذا، نستطيع القول بأن الهوية العربية غنية بأصولها الفكرية، وثابتة بثبات مرجعيتها اللسانية والدينية، فهوية الإنسان العربي أولا لسانية ذلك أن اللغة العربية مصدر الانتماء، والخزان الذي يحتوي تاريخ الأمة والذي به ترتبط جذور كل فرد منها، وباللسان يرتبط الدين، وبشكل آخر فإن الإنسان العربي ينتمي إلى حضارة عظيمة ساهمت في تطور البشرية وأرست من القيم السامية والممارسات الإنسانية ما جعل أبناءها يفخرون بها.

المراجع:

1. محمد سالم سعد الله،ألسنية النص، مسارات معرفية معاصرة، جدار للكتاب العالمي، عالم الكتب الحديث، ط**1**، **2007**،ص**31**.

2. المرجع نفسه ،ص **30**.

3. د. محمد محمود شاويش، نحو ثقافة تأصيلية (البيان التأصيلي)، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط**1**، **2007**،ص**32**

4. جاك لاكان، اللغة الخيالي والرمزي، ترجمة فليب شكلا، منشورات الاختلاف، ط**1**، **2006**،ص**84**

5. محمد قبلي، جذور وامتدادات، الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، ط**1**، **2006**،ص **36**

6. مجموعة من الباحثين، الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع، إصدار الجامعة التونسية، تونس، **1978**،ص **42**.

7. المرجع نفسه ،ص **42**.

8. مجموعة من الباحثين –الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع –إصدار الجامعة التونسية –تونس –**1978**،ص **359** .

9. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، تح: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي، دار الفكر، بيروت، ط**1**، **1963**،ص **160**.

10. محمد سالم سعد الله ،أنسنة النص –ص **146**.

11. محمد صالح الهرماس، مقاربة في إشكالية الهوية، المغرب العربي المعاصر، دار الفكر المعاصر، لبنان، دار الفكر دمشق، ط**1**، **2002**،ص **140**

12. نصر الدين غنيسة، عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة، منشورات الاختلاف، ط**1**، **2012**،ص **19**

13. الموسوعة العربية العالمية، الرياض، ج**2**، ط**1**، **1996**،ص **119**.